التحايل على أحكام الله والصدُّ عن سبيله

- ١ -

الكلام على اليهود كشفاً عن سماتهم في الضلال والمكر ومحاربة الله ورسله والعداء للإنسان، والسلوك الذي يتجافى مع الحق والاستقامة، **قد أخذ مساحة واسعة مباركة في كتاب الله وسنة المصطفى** عليه الصلاة والسلام، وكان الكلام - كما أسلفت من قبل - شديد الوضوح لا تشوبه شائبة لبس أو غموض، جازماً لا يقبل أيَّ لون من ألوان الاحتمال، وقد ضربت من قريب مثالاً للوضوح والجزم بآيات من سورتي النساء والمائدة.

ونحن الآن على موعد مع بعض النماذج من السنة المطهرة؛ حيث كان النبي ﷺ يقود المجتمع الوليد بالإسلام، وهو على ذُكر تام من عدوان اليهود على الحق، وعبثهم بالأحكام التي أنزلها الله على موسى عليه السلام في التوارة، أخرج مسلم وأبو داود عن البراء بن عازب -رضي الله عنهما - قال: «مُرَّ على النبي ﷺ بيهودي محمَّماً مجلوداً فدعاهم ﷺ فقال: هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قالوا: نعم فدعا رجلاً من علمائهم، فقال: أنشدك بالله الذي أنزل التوارة على موسى أهكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكم؟ قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحدَّ، فقلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه

على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم، فقال ﷺ: اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه، فأُمر به فرُجم، فأنزل الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [المائدة: ٤١] يقولون: ائتوا محمداً ﷺ فإن أمركم بالتحميم والجلد، فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، فأنزل الله تعالى ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المائدة: ٤٧] في الكفار كلُّها. هذه إحدى روايات مسلم وأخرجه البخاري عن ابن عمر، وفي رواية أبي داود مثل ذلك وقال في آخرها: فأنزل الله عزل وجل ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ [المائدة: ٤١] - إلى قوله - ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة: ٤٤] في اليهود إلى قوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المائدة: ٤٥] في اليهود إلى قوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المائدة: ٤٧] قال: هي للكفار كلُّها يعني هذه الآية.

وهذه الآيات المومى إليها من سورة المائدة بدءاً من الآية الحادية والأربعين، وهي قول الله جل شأنه: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ... ﴾ [المائدة: ٤١] الآية.

والتحميم: تسويد الوجه، من الحميم جمع حممة وهي الفحمة. وأخرج الحديث النسائي وابن ماجه بنحوه.

هكذا: مراعاة لذوي الشرف والمكانة فيهم، بدَّلوا حكم الله وحكموا في هذه الجريمة بغير ما أنزل الله؛ فبدلاً عن الرجم اخترعوا من عند أنفسهم التحميم وهو تسويد وجه مرتكب الجريمة بالفحم. ولذلك جاءت الآيات تعلن بصراحة ووضوح أن من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، فأولئك هم الظالمون، فأولئك هم الفاسقون، ولسوف تسعَّر بهم جهنم يوم القيامة عندما يحشرون في زمرة من قال الله فيهم: ﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾**﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وفي رواية أخرى لمسلم عن نافع أن عبد الله بن عمر أخبره «أن رسول الله ﷺ أُتي بيهودي ويهودية قد زنيا، فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود، قال: ما تجدون في التوارة على من زنى؟ قالوا: نسوِّد وجوههما ونحملهما ونخالف بين وجوههما ويطاف بهما، قال: فأتوا بالتوراة إن كنتم صادقين فجاؤوا بها فقرؤوها، حتى إذا مرُّوا بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على الرجم، وقرأ ما بين يديها، وما وراءها، فقال له عبد الله بن سلام – وهو مع رسول الله ﷺ –: مُره فليرفع يده، فإذا تحتها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، قال عبد الله بن عمر: فكنت فيمن رجمهما، فلقد رأيته يقيها الحجارة بنفسه». هكذا بلغ بهم الاستهتار بالدين، أن يضع الشاب الذي يقرأ، يده على آية الرجم، حتى كشف الحيلة عبد الله بن سلام رضي الله عنه.

وفي خطوة أخرىٰ – بعد أن رأينا احتيالهم مراعاة للطبقية – نتجه إلى ما كشفت السنّة المطهّرة عن احتيالهم للهروب من حكم الله طمعاً في الكسب ولو كان حراماً، وكيف أنَّ رسول الله ﷺ دعا عليهم ولعنهم من أجل ذلك. وفي هذا الموقف من رسول الله ﷺ ما فيه من التنبيه على عدم الوقوع فيما وقع فيه اليهود من العبث بالدين واللجوء إلى التحايل على أحكام الشريعة طلباً للدنيا ورغبة عن الآخرة. فقد أخرج البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول عام الفتح بمكة: «إن الله حرَّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام. فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة؟ فإنها تُطلى بها السفن، وتدهن بها الجلودويستصبح بها الناس؟ فقال لا، هو حرام» ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «قاتل الله اليهود، إن الله لما حرَّم عليهم شحمها جملوه، ثم باعوه، فأكلوا ثمنه» وفي رواية للبخاري عن ابن عباس «لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها وباعوها».

وعند أبي داود في رواية أخرى عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أيضاً قال: «رأيت رسول الله ﷺ جالساً عند الركن فرفع بصره إلى السماء فضحك وقال: لعن الله اليهود – ثلاثاً – إن الله حرَّم عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها، وإن الله عز وجل إذا حرَّم على قوم أكل شيء حرم عليهم ثمنه». أخرجه في باب (ثمن الخمر والميتة) من كتاب (الإجارة) وإسناده صحيح. ومعنى جملوها: أذابوها، حتى تصير وَدَكاً فيزول عنها اسم الشحم. والودك ما يتحلَّب من اللحم والشحم من

الدسم. تقول: جملت الشحم وأجملته: إذا أذبته، وجَمَلَ أفصح من أجمل.

هكذا كان الاحتيال على الحكم الشرعي بالقيام بعملية إذابة الشحم حتى يتغير اسمه ولكن حقيقة المحرَّم واحدة. ولذلك ندَّد عليه الصلاة والسلام بهم فقال: «لعن الله اليهود - أو قاتل الله اليهود - إن الله لما حرَّم شحومها - أي الميتة - أجملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه».

وفي استنباط للأحكام من هذا الحديث قال الإمام الخطابي المتوفىٰ سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة للهجرة، وصاحب كتاب (معالم السنن) الذي شرح فيه سنن أبي داود، قال - رحمه الله -: وفي هذا بيان بطلان كل حيلة يحتال بها للتوصل إلى محرَّم، وأنه لا يتغير حكمه بتغيير هيئته وتبديل اسمه.

ولقد فهم الصحابة - رضوان الله عليهم - أن في تنديد رسول الله ﷺ باليهود بسبب احتيالهم تنبيهاً للمسلمين أن لا يقعوا فيما وقع فيه المغضوب عليهم؛ فقد أخرج البخاري ومسلم والنسائي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: بلغ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن فلاناً باع خمراً فقال: قاتل الله فلاناً ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله اليهود، حرّمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها».

رزقنا الله الاستقامة في القول والعمل، وباعد بيننا وبين الوقوع في تقليد من غضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم جهنم وساءت مصيرا. وهدانا للانتفاع بهدي النبي ﷺ في شأن احتيالهم على أحكام الله، وتلاعبهم بمدلولات النصوص والحمد لله رب العالمين.

التحايل على أحكام الله والصدُّ عن سبيله

- ٢ -

سعدنا من قريب باصطحاب نماذج من السنة المطهرة، وقفتنا فيها النصوص على مدى الوضوح في الكلام على خصال اليهود، والجزم الذي لا يقبل الاحتمال في الحكم على انحرافهم بما يصنعون، فمن احتيال على نصوص التوارة بشأن حد الرجم للزاني إرضاء لطبقة الأشراف من الناس، إلى احتيال على تحريم الشحوم حيث كانت الحيلة تغيير اسم تلك الشحوم بالإذابة إذ يصبح اسمها بعد الإذابة ودكاً. ومما جاء في شأن القضية الأولى ما روى مسلم عن نافع أن عبد الله بن عمر أخبره أن رسول الله ﷺ أتي بيهودي ويهودية قد زنيا، فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود فقال: ما تجدون في التوارة على من زنى؟ قالوا: نسوِّد وجوههما ونحملهما ونخالف بين وجوههما ويطاف بهما، قال: فأتوا بالتوارة إن كنتم صادقين، فجاؤوا بها فقرؤوها، حتى إذا مروا بآية الرجم، وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم، وقرأ ما بين يديها وما وراءها، فقال له عبد الله بن سلام، وهو مع رسول الله ﷺ: مره فليرفع يده، فإذا تحتها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، قال عبد الله بن عمر: فكنت فيمن رجمهما، فلقد رأيته يقيها الحجارة بنفسه.

هذا وقد جاء في رواية لأحمد في مسنده، تصريح باسم القارئ الذي جيء به ليقرأ في التوارة لمعرفة حكم الله في تلك الجريمة؛ فقد أخرج –

رحمه الله – بسنده عن ابن عمر – رضي الله عنهما – «أن اليهود أتوا النبي ﷺ برجل وامرأة منهم قد زنيا، فقال: ما تجدون في كتابكم؟ فقالوا نسخِّم وجوههما، ويخزيان، قال: كذبتم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوارة فاتلوها إن كنتم صادقين. فجاؤوا بالتوارة وجاؤوا بقارئ لهم أعور يقال له ابن صوريا، فقرأ، حتى إذا انتهى إلى موضع منها، وضع يده عليه، فقيل له: ارفع يدك، فرفع يده فإذا هي تلوح، فقال أو قالوا: يا محمد إن فيها الرجم، ولكنا كنا نتكاتمه بيننا، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، قال: فلقد رأيته يجانئ عنها يقيها الحجارة بنفسه».

السُّخام: سواد القدر، وتسخيم الوجه تسويده بالسُّخام.

ولقد يتساءل متسائل عن كون النبي ﷺ قد علم أن الموجود في التوراة الرجم. وأكذبهم حينما قالوا غير ذلك، فالمعروف أنهم قد حرَّفوا وبدَّلوا كما دلت على ذلك نصوص القرآن الكريم من مثل قوله تعالى في الآية الخامسة والسبعين من سورة البقرة خطابا للمؤمنين: ﴿**أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾**﴾ [البقرة: ٧٥] وقوله جل شأنه في الآية السادسة والأربعين من سورة النساء: ﴿**مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٤٦﴾**﴾ [النساء: ٤٦] وقوله سبحانه في الآية الثالثة عشرة من سورة المائدة: والمعنيون هم اليهود: ﴿**فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ**

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: ١٣] ونقرأ في الآية الخامسة عشرة من السورة نفسها قول من لا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة: ١٥].

ونحن واجدون عند العلماء الجواب عن التساؤل المومى إليه، قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم عند الكلام على ما جاء في الحديث من قوله ﷺ: «ما تجدون في التوراة» قال العلماء: (هذا السؤال ليس لتقليدهم ولا لمعرفة الحكم منهم، وإنما هو لإلزامهم بما يعتقدونه في كتابهم، ولعله ﷺ قد أُوحِي إليه أن الرجم في التوراة الموجودة في أيديهم لم يغيروه كما غيروا أشياء، أو أنه أخبره بذلك من أسلم منهم، ولذلك لم يخف ذلك عليه حين كتموه).

هذا: وقد كان النبي ﷺ حريصاً أشد الحرص على أن يعتبر المسلمون بما حل باليهود من غضب الله بسبب تحايلهم على الأحكام وعملهم الدائب على التفلت منها، فكان عليه الصلاة والسلام لا ينى يبين لأمته أن الوقوع فيما وقع فيه اليهود شر مستطير، واتجاه يتنافى مع الالتزام بشرعة الإسلام ومنهجه في الحياة، بل هو سبب الهلاك والعياذ بالله؛ فعن عائشة – رضي الله عنها – : «أن قريشا أهمهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد، فتلوَّن وجه رسول الله ﷺ فقال: أتشفع في حد من

حدود الله؟ فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ فاختطب فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد فإنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها. ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها، قالت عائشة: فحسنت توبتها بعد وتزوجتْ، وكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ» [رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه واللفظ لمسلم].

وفي رواية للبخاري «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها» بدل (لقطعت يدها) والمرأة هي فاطمة بنت الأسود بن عبد الأسد المخزومية عمها أبو سلمة رضي الله عنه.

وبعد: فإن عتب رسول الله ﷺ على أسامة بن زيد الحِبِّ بن الحب لأنه يشفع في حد من حدود الله، وهو بمثابة إعلان في تاريخ الإنسانية كلها، يبيِّن أوضح بيان أن الحق في الإسلام هو الذي يجب أن يعلو، وأن الكل متساوون أمام شريعة الله عز وجل، فالرب واحد والشريعة لعباده من عنده سبحانه. ولقد أعقب هذا العتاب، كشفه - عليه الصلاة والسلام - عن سنة من سنن الله في خلقه؛ وهي أن العبث بدين الله والانحراف عن شريعته بعدم تطبيقها على الجميع، مدعاة للهلاك والدمار ذلكم قوله عليه الصلاة والسلام: «فإنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد»، والمقصود هنا أهل الكتاب وبخاصة اليهود، وقد رأينا

محاولتهم التفلت من إقامة حد الرجم بكتمان ما جاء صريحا عندهم في التوراة.

وبعد هذه الرحلة مع ذلك النموذج المبارك من السنة، الذي وقَفَنا على لون من ألوان الاحتيال على الأحكام عند اليهود، نعود إلى النموذج الآخر وهو ما أخبر عنه النبي ﷺ ـ كما سلف ـ من أنهم عمدوا إلى إذابة الشحم المحرَّم عليهم بيعه فباعوه وأكلوا ثمنه، بحجة أن اسمه قد تغيَّر فأصبح (الودَك) ذلكم قوله ﷺ فيما روى الشيخان وأصحاب السنن عن ابن عباس – رضي الله عنهما –: «لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها وباعوها» واللفظ للبخاري.

عمدت إلى التذكير بهذا الحديث الذي يحمل أعمق الدلالة على الانحراف المتأصل في نفس اليهودي، وكيف أنه يدعي الإيمان بالتوراة، وفي الوقت نفسه لا يألوا جهدا ـ وهو يدور مع المال حيث دار ـ في أن يزيغ عن حكم الله ليحصل على الربح من أي طريق ولو كانت سحتا والعياذ بالله... أقول: عمدت إلى التذكير مرة أخرى بهذا الحديث الذي رواه ابن عباس – رضي الله عنهما –، كيما أورد رواية أخرى عن عبد الله بن عمر تحمل لونا آخر من ألوان الوعيد لأولئك الأناسي على ما يرتكبون من مآثم وضلالات في هذه السبيل.

فعن عبد الواحد البُناني قال: «كنت مع ابن عمر – رحمه الله – فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن إني أشتري هذه الحيطان يكون فيها العنب ولا نستطيع أن نبيعها كلها عنباً حتى نعصره، فقال: عن ثمن

الخمر تسألني؟ سأحدثك حديثا سمعته من رسول الله ﷺ. كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ إذ رفع رأسه إلى السماء ثم أكبَّ ونكت في الأرض وقال: الويل لبني إسرائيل، فقال له عمر: يا رسول الله لقد أفزعنا قولك: الويل لبني إسرائيل فقال: ليس عليكم من ذلك بأس، إنهم لما حرمت عليهم الشحوم، فيذيبونه فيبيعونه فيأكلون ثمنه، كذلك ثمن الخمر عليكم حرام»، رواه أحمد والطبراني في الكبير. قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح خلا عبد الواحد وقد وثقه ابن حبان، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين.

obeikandl.com

التحايل على أحكام الله والصدُّ عن سبيله

- ٣ -

في متابعة لما يراه الناظر في نصوص الكتاب والسنة من وفرة في الكلام على أهل الكتاب بعامة – وعلى اليهود بخاصة – في خصالهم وسلوكهم ونهجهم في الموالاة والمعاداة واحتيالهم على أحكام الدين للتفلُّت منها، ومظاهرتهم الباطل على الحق حتى مع الأنبياء والرسل، وعنصريتهم البغيضة التي تتحرك في إطار من الدعاوى الباطلة.. أود الإشارة ـ في متابعة لهذه الحقيقة إلى أن الوقائع من بدء تاريخ الإسلام ـ في علاقتهم بأمتنا ـ حتى عصرنا الحاضر، جاءت مؤيدة التأييد كله لما جاء في الكتاب والسنة وسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام ـ على وجه العموم.

وبصرف النظر عن هذه المؤيدات الناطقة التي تتجدد يوما بعد يوم، والتي تدل ـ فيما تدل ـ على أن الكلام الذي قيل بشأنهم هو الصدق كله، لأنه وحي من عند الله يوحى... بصرف النظر عن هذه المؤيدات؛ فإن مقتضى التصديق بما جاء في الكتاب الكريم وفي السنة المطهرة؛ أن يكون المسلمون على وضوح الرؤية في شأن غير المسلمين ـ واليهود منهم بخاصة ـ كيما تكون العلاقة متصورا فيها تلك الحقائق التي نلمح إليها، مما جاء في أولئك الأناسي الذين تعاني أمتنا منهم وممن يلوذ بهم ويسير في فلكهم ما تعاني، وأن تكون تلك العلاقة أيضا منضبطة بالموازين التي

هي انعكاس تلك الحقائق عند المؤمن، والتي لا بد من حسن تصورها والإيمان بها لوضع الأمور موضعها الطبيعي، مهما تمادى الزمن وتقلبت الأيام وازدحمت على طريق المسلمين الوقائع والأحداث، **وإلا فستظل الأمور تتدحرج من انتكاس إلى انتكاس أشد منه، حتى يعود المسلمون إلى إدراك الحقائق من منابعها الأصلية وإعداد القوة إيمانا وعلماً وعملاً، وأخذا بأسباب الجهاد في سبيل الله من شتى أطرافها.**

هذا: وقد وقفتنا بعض النصوص من القرآن والسنة ـ كما رأينا في صفحات قريبات ـ على مدى الجزم التي اتسمت به الأحكام التي أعطيت في شأنهم. وكان من صنيعهم لجوؤهم إلى الحيلة بنية التفلُّت من أحكام التوراة التي يزعمون أنهم مؤمنون بها كما أنزلت على موسى عليه السلام.

رأينا من ذلك قضية تتعلق بإقامة الحدود، وقضية تتعلق ببيع الشحوم التي حرمها الله عليهم؛ ففي الأولى كذبوا على رسول الله وحاولوا كتمان الموجود في التوراة، وفي الثانية احتالوا بتغيير اسم الشحوم باسم آخر فباعوها وأكلوا ثمنها حراماً وسحتاً في بطونهم وقال رسول الله ﷺ في ذلك: «لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها» وجملوها: أذابوها حتى أصبحت تسمى الودك وهو دسم اللحم والشحم.

أجل! دعا عليهم رسول الله باللعن ـ وهو الطرد من رحمة الله ـ أو أخبر عن أن الله لعنهم وطردهم من رحمته فهم المطرودون من رحمة الله المغضوب علهم ـ والعياذ بوجهه سبحانه ـ.

والنص القرآني في تحريم الشحوم عليهم هو ما جاء في الآية السادسة والأربعين بعد المائة من سورة الأنعام من قول الله تعالى: ﴿ **وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾** ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

قال العلماء: المقصود بكل ذي ظفر ما لم تفرق أصبعه من البهائم والطير؛ كالإبل والأنعام والأوز والبط. وما علق بالظهور فهو مستثنى من الشحوم التي حرمت ﴿ **حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ** ﴾ [الأنعام: ١٤٦] والحوايا: الأمعاء جمع حاوياء أوحاوية، وما اختلط بعظم هو شحم الإلية فإنه أحل لهم. فما علق بالظهور من الشحم أو حملته الأمعاء أو اختلط بعظم فهو حلال، وباقي الشحوم حرام. ولكنهم ـ كما أسلفنا من قريب ـ لم يقفوا عند حدود الله بل احتالوا وعبثوا فاستحقوا اللعنة والغضب من الله ومن رسوله عليه الصلاة والسلام.

ويلاحظ أن الآية الكريمة قد ختمت بما يدل على عدل الله المطلق، وأنه لم يظلم هؤلاء الناس فيما حرَّم عليهم؛ فهم الذين طغوا وبغوا فاستحقوا هذه العقوبة بسبب ما جنته أيديهم وما اقترفوه من آثام، يقول سبحانه: ﴿ **ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** ﴾ فاسم الإشارة (ذلك) يعود إلى التحريم والباء في قوله سبحانه (ببغيهم) للسببية، والبغي هنا: الظلم والعدول عن الحق أي جزيناهم بسبب ظلمهم، فقد ظلموا أنفسهم وظلموا الحق فعدلوا عنه إلى الباطل، وإنا لصادقون في إخبارنا ومواعيدنا.

والحق أن النصوص القرآنية الواردة في شأن اليهود، تعطي تكاملاً في كل موضوع من الموضوعات المطروحة؛ لذا يحسن أن ينظر المؤمن نظرة تكاملية لمجموع النصوص في الموضوع الواحد.

ويبدو ـ والله أعلم ـ أن البغي الذي أشارت إليه الآية هنا في سورة الأنعام وهي سورة مكية، هو ما أشارت إليه مفصلاً سورة النساء وهي سورة مدنية. وذلك قول الله جل شأنه في الآيتين الستين بعد المائة والتي تليها: ﴿**فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾**﴾ [النساء: ١٦٠ – ١٦١]. قال أبو جعفر الطبري – رحمه الله –: يعني بذلك جل ثناؤه: فحرمنا على اليهود، الذين نقضوا ميثاقهم الذي واثقوا ربهم، وكفروا بآيات الله، وقتلوا الأنبياء، وقالوا البهتان على مريم، وفعلوا ما وصفهم الله في كتابه، طيبات من المآكل وغيرها كانت لهم حلالاً عقوبة لهم بظلمهم الذي أخبر الله عنه في كتابه. ثم نقل عن قتادة قوله: عوقب القوم بظلم ظلموه وبغي بغوه، حرمت عليهم أشياء ببغيهم وظلمهم.

ومما أوخذوا عليه ـ وكان عاملاً من عوامل تحريم طيبات أحلت لهم ـ صدُّهم عن سبيل الله كثيراً، فقد صدوا عباد الله عن دينه وسبله التي شرعها لعباده صدا كثيرا وكان صدهم عن سبيل الله كما دلت النصوص والوقائع، بقولهم على الله الباطل، وادعائهم أن ذلك على الله، وكتمانهم ما أنزل الله، وتبديلهم كتابه سبحانه، وتحريف معانيه عن وجوهه. قال أبو

جعفر: (وكان من عظيم ذلك جحودهم نبوة نبينا محمد ﷺ، وتركهم بيان ما قد علموا من أمره لمن جهل أمره من الناس).

وكذلك أخذوا الربا وقد نهوا عنه، وأكلوا أموال الناس بالباطل. وأكل أموال الناس بالباطل: ما كانوا يأخذون من الرِّشى على الحكم كما جاء في سورة المائدة من قوله تعالى: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [المائدة: ٦٢] وكان من أكلهم أموال الناس بالباطل، ما كانوا يأخذون من أثمان الكتب التي كانوا يكتبونها بأيديهم، ثم يقولون: هذا من عند الله، وما أشبه ذلك من المآكل الخسيسة الخبيثة، فعاقبهم الله على جميع ذلك ـ وهو المنزه عن الظلم ـ بتحريمه ما حرَّم عليهم من الطيبات التي كانت لهم حلالاً قبل ذلك.

وواضح أن العقوبة الإلهية، لم تقتصر على ما كان في الدنيا من تحريم طيبات أحلت لهم، مما رأينا تفصيله في سورة الأنعام، بل يضاف إلى ذلك العذاب الأليم في الآخرة، وذلك ما أشير إليه في ختام الآية الثانية والستين بعد المائة من سورة النساء ـ كما جاء ذكرها من قريب ـ بقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

وكنت أسلفت من قبل أن (من) هنا بيانية ـ كما يقول العلماء ـ وليست تبعيضية، فالله تعالى أعدَّ للكافرين بالله ورسوله محمد ﷺ من هؤلاء اليهود العذاب الأليم ـ وهو العذاب الموجع ـ من عذاب جهنم عنده يصلونها في الآخرة إذا وردوا على ربهم.

وهكذا يبدو التكامل واضحا بين ما جاء في سورة الأنعام ـ وهي سورة مكية ـ وبين ما جاء في سورة النساء بشأن ما حُرِّم على اليهود من الطيبات وكيف أن ذلك كان بظلمهم وبغيهم ـ وهي سورة مدنية ـ كما سنأتي على إيضاحه فيما نستقبل من الحديث إن شاء الله.

obeikandl.com

أحرص الناس على حياة

أسلفت في صفحات خلت، أن الوضوح والجزم كانا طابع القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة في الحديث عن اليهود. وهي مقولة قدمنا لها عدداً من النماذج.

ومن حِكم ذلك ـ والله أعلم ـ أن يكون المسلمون على الصراط السوي في تحقيق وجودهم الذاتي عقيدة وتشريعا وسلوكاً، وقدرة على الإنجاز الحضاري السليم، وأن لا يقعوا فريسة المكر الذي يمكره اليهود، وأن يكونوا بمنجاة من تقليدهم فيما انزلقوا إليه من انحراف، لكيلا يصيبهم ما أصابهم، والعياذ بالله تعالى.

ونحن الآن على موعد مع خطوة أخرى، نتلَمَّس من خلالها مزيداً من الدلالات الحكيمة في تعرية مواقف يهود، أو طوائف منهم ـ على ذلك المستوى من الوضوح ـ ونبيِّن العبرة من ذلك بالنسبة للأمة المحمدية، التي جعلها الله أمة وسطاً، وأولاها أمانة الشهادة على الناس. وما أحوج هذه الأمة ـ وهي على عتبة يقظة جديدة ـ أن تكون حفيَّة بالكلمة القرآنية تعي أبعادها، وتبذل قصارى جهدها لتكون على مستوى العمل والتدبر.

جاء في الآية الثالثة والأربعين بعد المائتين من سورة البقرة قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا**

يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤٣] وتدل الروايات أن هذه الآية الكريمة تحكي قصة قوم من بني إسرائيل كانوا في قرية يقال لها داوردان أو ذاورداب، وعددهم أربعة آلاف أو ثمانية آلاف أو أكثر ـ كما روي عن ابن عباس – رضي الله عنهما ـ فأصابهم الطاعون، فخرجوا من القرية هاربين من الموت وقالوا: نأتي أرضا ليس بها موت. ولكن فرارهم لم يغن عنهم شيئاً، فأماتهم الله، ثم مر عليهم نبي من الأنبياء فدعا ربه أن يحييهم فأحياهم.

وقد ذكر الحافظ ابن كثير في التفسير، ما روى وكيع بن الجراح في تفسيره بسنده إلى سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ** ﴾ قال: كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون، قالوا: نأتي أرضا ليس بها موت، حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا، قال الله لهم: موتوا فماتوا، فمرَّ عليهم نبي من الأنبياء، فدعا ربه أن يحييهم فأحياهم، فذلك قول الله عز وجل: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ** ﴾.

وأنت واجد أن في إحياء هؤلاء الناس بعد الموت، عبرة ودليلاً قاطعاً على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة؛ فالذي قدر على الإحياء هنا، قادر على الإحياء والبعث يوم الدين.

هكذا يتفضل الله على عباده، فيريهم الآيات الدالة على أنه قادر على

أن يحيي الموتى، ويقفهم بين يديه للحساب، ولكن أكثرهم لا يشكرون فيعتبرون، ذلكم قول الله جل وعلا في ختام الآية المشار إليها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي فيما يريهم من الآيات الباهرة، والحجج القاطعة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ أي لا يقومون بشكر ما أنعم الله عليهم في دينهم ودنياهم، وما تفضل عليهم من تبيان الطريق التي تقودهم إلى الاعتبار واليقين بأنهم مبعوثون بعد الموت.

هذا: وقد كان من فعل اليهود المعنيِّين في الآية، أنهم لم يأخذوا بالأسباب أولا، وحسبوا أن فرارهم حذر الموت، يمنع وقوع الموت بهم... فجاءت الآية الكريمة لتدل على أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، وأن هؤلاء القوم خرجوا من ديارهم فرارا من الوباء طلبا لطول الحياة، فعوملوا بنقيض قصدهم وجاءهم الموت سريعا أجمعين في آن واحد.

ويريد الله للمسلمين ـ كما أسلفت ـ أن يكونوا على المحجَّة البيضاء في مواجهة الوقائع، ولا يستسلموا للتقليد الأعمى، فيحلَّ بهم ما حلَّ بأولئك اليهود. لذا فإن الآية الكريمة ـ كما دلت السنة المطهرة ـ لا تتعارض مع الأخذ بالأسباب لتوقي الوباء النازل، بل إن الأخذ بأسباب الوقاية مطلوب وهو شيء غير الذي فعله من عناهم الله تعالى بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ...﴾ الآية.

فقد جاء في الحديث الصحيح، الذي أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما، واللفظ للبخاري، عن إبراهيم بن سعد قال: سمعت أسامة ابن زيد يحدث سعدا عن النبي ﷺ قال: «إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا

تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها» فقلت: أنت سمعته يحدث سعدا ولا ينكره؟ قال نعم.

ولقد وعى الصحابة – رضوان الله عليهم – وصية النبي ﷺ عندما علموا بها، ووقفوا عندها، حيث أخذوا بأسباب الوقاية مدركين أن ذلك لا يتنافى مع التوكل وصدق الإيمان بالقدر.

فقد روى أحمد والبخاري ومسلم، واللفظ للبخاري هنا أيضا عن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما –، أن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسرْغ لقيه أمراء الأجناد ـ أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه ـ فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام، قال ابن عباس: فقال عمر: ادع لي المهاجرين الأولين، فدعاهم فاستشارهم، وأخبرهم أن الوباء قد وقع في الشام، فاختلفوا، فقال بعضهم: قد خرجنا لأمر، ولا نرى أن نرجع عنه، وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي من كان ههنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم، فلم يختلف منهم عليه رجلان، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء، فنادى عمر في الناس: إني مصبِّحٌ على ظهر، فأصبحوا عليه، فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفِراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله. أرأيت إن كانت لك إبل هبطت واديا له عُدوتان: إحداهما خصيبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصيبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت

الجدبة رعيتها بقدر الله؟ قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف ـ وكان متغيبا في بعض حاجته ـ فقال: إن عندي في هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه» فحمد الله عمرُ، ثم انصرف.

هذا وخروج عمر – رضي الله عنه – إلى الشام في الواقعة المشار إليها، كان سنة ثماني عشرة أو سبع عشرة للهجرة، والطاعون الذي وقع بالشام حينئذ هو طاعون عمواس. وسرْغ: مدينة افتتحها أبو عبيدة، ونقل الحافظ ابن حجر عن ابن وضاح أنها هي واليرموك والجابية متصلات، وبينها وبين المدينة ثلاث عشرة مرحلة. والعدوة المكان المرتفع من الوادي وهو شاطئه.

وأنت ترى كيف أن عمر – رضي الله عنه –، أجاب أبا عبيدة على ما حسبه من أن الدخول إلى بلد الطاعون فرار من قدر الله، أجابه بقوله: نفرُّ من قِدر الله إلى قدر الله.

وهكذا كشفت الكلمات القرآنية عن موقف أولئك اليهود ومحاولتهم الهروب من الموت حرصاً على الحياة دون إتيان الأمور من طرقها المعقولة في الأخذ بالأسباب.. وشاء الله لهذه الأمة أن لا تقع فيما وقعوا فيه، ودلنا رسول الله ﷺ على ما وصل إليه الإنسان بعد قرون وقرون من ضرورة الاحتراس والأخذ بأسباب التوقي في مواجهة الطاعون «إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه».

فاعتبروا يا أولي الأبصار

عرضنا فيما مضى لما ذكر الله عن جماعات من بني إسرائيل، كيف أنهم خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت عندما أصاب أرضهم الطاعون، فعلوا ذلك لشدة تعلقهم بالحياة، زاعمين أن ذلك ينجيهم من الهلاك دونما أخذ بالأسباب على الوجه المطلوب، فأماتهم الله ثم أحياهم ليستكملوا أجلهم، وكان في ذلك عبرة ودليل على أنه لن يغني حذر من قدر، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه، إذ إن هؤلاء اليهود خرجوا فراراً من الوباء طلبا لطول الحياة، فعوملوا بنقيض قصدهم، وجاءهم الموت سريعاً في آن واحد. والآية التي حملت إلينا ذلك عن أولئك الأناسي هي الآية الثالثة والأربعون بعد المائتين من سورة البقرة ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ** ﴿٢٤٣﴾ ﴾.

ونحن الآن على موعد مع الآيتين اللتين تليان الآية المذكورة، ننظر فيهما، ونسعد بالكشف عما يربطهما بها، استكمالا لما يمكن من العبرة بتلك القصة التي وقعت للألوف المومى إليهم من اليهود، لأن الكلمة القرآنية في مجال العبرة والدرس تحمل الحظ الوافر أبداً من التوجيه للمسلمين كيما يفيدوا مما حصل لغيرهم حينما وقعوا في المخالفة عن أمر الله، فلا يغفلوا فيقعوا في المخالفة كما وقعوا، بل يتخذوا من ذلك حافزا

لالتماس الصواب أينما كان، والعمل على إحكام السير في الطريق التي تمليها العقيدة الصحيحة، وتقتضيها شريعة الإسلام المباركة.

والآيتان اللتان نومئ إليهما هما قول الله جل وعز: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾[البقرة: ٢٤٤، ٢٤٥]

وهذه وقفة عند الآية الأولى بالقدر الذي يتسع له المقام ويوحي به الأسلوب الحكيم المعجز في القرآن الكريم.

تنزلت سورة البقرة ـ وهي سورة مدنية ـ والجهاد مفروض على المسلمين، وميادين القتال في سبيل الله، تزخر بأولئك المجاهدين الذين أيقنوا أن أنفسهم وأموالهم مباعة لله عز وجل، وهم مستبشرون ببيع الله الذي بايعوا به، ويأتي الحديث عن فئام من اليهود في الآية الثالثة والأربعين بعد المائتين من هذه السورة، ليكشف عن رغبتهم العشوائية في الحياة، وعملهم على مصادمة القدر، بصورة تخلو من أي شعور بمسؤولية العقيدة التي يزعمون أنهم بها مؤمنون... فيوجه الله المسلمين آمراً لهم بالقتال في سبيله، فالآجال بيد الله، والأعمار من القدر المقدور عند الله ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] فليقدمو على القتال في سبيل الله تحت راية الكلمة الطيبة لا إله إلا الله؛ فالإقدام في قتال أعداء الله لا يقرب أجلا، والإحجام عن ذلك لا يؤخر أجلاً ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٣٤].

ها هم اليهود خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، ولكن ذلك

لم يغنهم شيئاً، فجاءهم الموت جميعاً بآن واحد بأمر الله، أجل جاءهم بأمر الله الذي لا تخفى عليه خافية. والذي فروا منه وقعوا فيه، ثم أحياهم الله الذي بيده الموت والحياة ليستكملوا آجالهم.

هكذا نرى أن قصة هؤلاء الألوف من بني إسرائيل، تساق مساق العظة والاعتبار، وتخرج الكلمة القرآنية بالحديث عن فعل اليهود إلى تثبيت الرغبة في الجهاد في نفوس أصحاب الرسالة الخاتمة ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

وهكذا يتلو التالي قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البقرة: ٢٤٣] يتلو التالي هذه الآية الكريمة ليقع بعدها مباشرة على قول الحكيم الخبير ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ [البقرة: ٢٤٤]. أجل: وقاتلوا في سبيل الله لإعلاء دينه، واعلموا أن الله سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم ونياتكم، فيجازيكم. ويا نعم ما يعطي الله المجاهدين الصابرين الصادقين. وإذا كانت الآية هنا صورة معبرة عن الأسلوب المعجز في القرآن، بالخروج من الكلام عن اليهود وصنيعهم فراراً من الموت ورغبة في الحياة على أي شكل، إلى دعوة المؤمنين أن يثبتوا على القتال في سبيل الله.

إذا كانت الآية هنا صورة عن ذلك؛ فإن المؤمنين قد سَمَت ـ بعون الله ـ نفوسهم إلى الحد الذي جعلهم يضعون هذا التوجيه وأمثاله موضع التنفيذ في حياتهم العملية حتى أصبح التسابق إلى ميادين الجهاد والتفاني في سبيل الله جزءاً من وجودهم الذاتي.

على أن القرآن الكريم قد أعطى هذه الحقيقة، حقيقة أن الأجل محتوم وأن الفرار من الموت لا يؤخره، وأن الإقدام على طلب الشهادة لا بد منه، أعطى هذه الحقيقة اهتماماً واضحاً؛ ففي شأن المنافقين ـ وما أوضح تأثرهم بأخلاق اليهود ـ نقرأ بدءاً من الآية السادسة والستين بعد المائة من سورة آل عمران قول الله جلت قدرته: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾** ﴾ [آل عمران: ١٦٦ – ١٦٨].

أرأيت: ﴿ **قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾. وفي الآية السابعة والسبعين من سورة النساء نقرأ قول الله جلَّ وعز: ﴿ **أَوَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٧٧﴾** ﴾ [النساء: ٧٧] تلا ذلك قوله سبحانه: ﴿ **أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ** ﴾ [النساء: ٧٨].

ألا ما أعظم أن يستأنف المسلمون طريقهم إلى تدبر آيات الله، والاعتبار بما قصته عن اليهود في صنيعهم وخلائقهم ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ إنهم إنْ فعلوا ذلك كانوا على الجادة واستطاعوا – بعون الله – أن يحققوا ذاتهم بعد ضياع أو ما يشبه الضياع، وأن يحولوا النكبات إلى نصر مبين، والحمد لله رب العالمين.

يحزن أنه لم يقتل في المعركة

أجدني ـ والحديث متابعة لاستلهام آيات من سورة البقرة، كانت أولاها عن واقعة ذات دلالة على تعلق اليهود العشوائي بالحياة ـ أجدني والأمر كذلك، مسوقا إلى التذكير مرة أخرى بنص تلك الآيات نفسها كيما تكون المتابعة أقرب إلى السلامة إن شاء الله.

والآيات هي قول الله تعالى في السورة المومى إليها وهي إحدى الزهراوين بدءاً من الآية الثالثة والأربعين بعد المائتين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾[البقرة: ٢٤٣ – ٢٤٥].

وقد رأينا في النقلة من الكلام على أولئك الفئام من اليهود الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف فراراً من الموت، فقوبلوا بنقيض ما أرادوا، إذ جاءهم الموت مرة واحدة ثم أحياهم الله ليستكملوا آجالهم.. رأينا في النقلة من الكلام على أولئك اليهود إلى الأمر بالقتال لإعلاء كلمة الله بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سمة من سمات الأسلوب الحكيم المعجز في القرآن الكريم؛ فكأن الكلمة القرآنية تنادي وتثبت في خلدهم وتصورهم، أنه ما دام لا يغني حذر من قدر، وأن الآجال بيد الله، فهي محتومة مقضية.. فليثبتوا على القتال في سبيل

الله، مهما اشتدت المخاطر وتفاقمت الصعاب فما عند الله خير وأبقى، ويا ما أجمل تلك الحياة التي تكتب للشهيد الذي يقضي في ساحة الجهاد. ورضي الله عن أبي بكر في قوله: «اطلب الموت توهب لك الحياة».

ويجدر بنا أن نتذكر، **والأمة الإسلامية تعاني ما تعاني من اليهود**، الذين ذكر الله في كتابه من قصصهم ما ذكر، ووصف من خلائقهم ما وصف، وأراد لهذه الأمة أن تقف موقف العبرة التي تدفع إلى الأخذ بالأسباب واستقامة العمل والسلوك... يجدر بنا أن نذّكر أن الرعيل الأول، عندما تدبروا القرآن ووقفوا عند أمره ونهيه، وكانوا عند كلمة رسول الله ﷺ لأن طاعته من طاعة الله... استطاعوا أن يحققوا للأمة وجودها الذاتي تحت راية الكلمة الطيبة **لا إله إلا الله محمد رسول الله**، ولئن كان أولئك اليهود ـ كما دلت الآية ـ قد خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، فإن المسلمين الصادقين كانوا بجهادهم يستعذبون الموت في سبيل الله؛ لأنه طريقهم إلى حياة أفضل عند الله، ففي سورة آل عمران نقرأ قول الله تعالى: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾**﴾ [آل عمران: ١٦٩] وهم على خير في كل حال، ما داموا على صدق النية والإيمان بوعد الله، ذلكم قول الله جل شأنه في سورة النساء: ﴿**فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾**﴾ [النساء: ٧٤] بل كان بعضهم يحزن أن يموت على فراشه، فلا يقتل وهو يقارع أعداء الله في الميدان، قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – في تفسيره: (وروينا عن أمير الجيوش، ومقدم العساكر، وحامي حوزة

الإسلام، وسيف الله المسلول على أعدائه، أبي سليمان خالد بن الوليد – رضي الله عنه – أنه قال وهو في سياق الموت: (لقد شهدت كذا وكذا موقفاً، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه رمية أو طعنة أو ضربة، وها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء) يعني أنه يتألم لكونه ما مات قتيلاً في الحرب، ويتأسف على ذلك، ويتألم أن يموت على فراشه.

أما اليهود الذين يشهد العالم غطرستهم وعدوانهم على الحق وأهله بسبب ضعف الوجود الحقيقي للمسلمين وقعودهم عن الجهاد: فقد أشهدنا القرآن أن ما صنعه أولئك الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت، لم يأتوا بجديد؛ فمن أبرز صفات اليهودي حرصه على الحياة وخوفه من الموت، وتلك حقيقة قررها الكتاب الكريم على صورة لا تقبل الاحتمال، ها نحن أولاء نقرأ في سورة البقرة بدءاً من الآية الرابعة والتسعين قول الله تباركت أسماؤه: خطاباً للنبي ﷺ بشأن يهود: ﴿ **قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾** ﴾ [البقرة: ٩٤] ثم نفى الله عنهم نفياً قاطعاً أن يفعلوا ذلك، لأنهم على علم بما هم عليه من الظلم، وما تجنيه أيديهم من الشر والفساد فقال سبحانه: ﴿ **وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾** ﴾ [البقرة: ٩٥].

ولا يقتصر الأمر على ذلك بل هم أحرص الناس على حياة، ومن الذين أشركوا، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة، لعل الشقة تبعد بينه وبين

العذاب، ولكنه مهما عُمِّرَ فليس بمزحزحه من العذاب والله بصير بما يعمل هؤلاء الظالمون، فيجازيهم على أعمالهم بما يستحقون. وذلك ما نقرؤه بعد الآيتين السالفتين من قول الله سبحانه: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة: ٩٦].

ونظير ذلك ما نقرأ في الآيات السادسة والسابعة والثامنة في سورة مدنية أخرى هي سورة الجمعة من قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [الجمعة: ٦ – ٨].

ألا وإن الحقائق التي عرض لها القرآن ـ وهو يكشف عن سمات اليهود ـ أمانة في أعناق المسلمين، وإدراك ذلك وأداء حق الله فيه، كفيل ـ إذا صدقت العزائم واتخذت الأسباب ـ أن يغير مجرى الأحداث ويعيد الأمور إلى نصابها، وعندها يملي المسلمون ـ بعون الله ـ إرادتهم على التاريخ من جديد... وينحسر ما نرى من اتخاذ أمة المسلمين هزواً، وتنطُّع من ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وتسربلوا غضب الله إلى يوم الدين.

غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا

النظرة المتدبرة في الآيات التي أسعدنا اصطحابها وهي تكشف عن صنيع اليهود المنافي للإيمان بالقدر واعتقاد أن الآجال بيد الله، وتدعو إلى الصدق في المواطن، والإخلاص في طلب الشهادة في سبيل الله... هذه النظرة المتدبرة الواعية.. تعطي ـ فيما تعطي ـ أن على المسلمين أن يعتبروا بما حصل لأولئك الناس الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت فلم يغنهم ذلك شيئاً، وأن يتخذوا من ذلك حافزاً جديداً للقتال في سبيل الله، وصدق ما عاهدوا الله عليه، وهو حافز يضاف إلى ما في قلوبهم وعقولهم من دواع إيمانية تدفع بالمؤمن إلى ساحات الجهاد، وهو يستعذب الموت في سبيل الله ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾.

[البقرة: ٢٤٤].

ونحن الآن على موعد مع آية أخرى تلت هذه الآية التي جاءت عقب قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ...﴾ [البقرة: ٢٤٣] الآية، والآية التي نعنيها هي قول الله جل وعز: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢٤٥] فقد جاءت عقب قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ [البقرة: ٢٤٤].

والذي يبدو ـ والله أعلم ـ أنه لما كان اليهود حريصين على الحياة، حرصا يعميهم عن أبسط قضايا الإيمان، جاء تذكير المسلمين بالقتال في ضوء العبرة بما صنع اليهود حرصاً على الحياة... وكما أن الآجال بيد الله، فالأرزاق بيد الله أيضاً. ولما كان اليهود حريصين على المال حرصا يجعلهم يستهينون بكل ما له صلة بالعقيدة والأخلاق والسلوك، ذكَّر الله المؤمنين بأن يكونوا على المنهج السوي الذي يخالف ما عليه اليهود؛ فالمال مال الله، والعباد عباد الله، وهم مستخلفون في هذا المال؛ وإذن فلينفق المسلمون المال في سبيل الله، وليعلموا أن إنفاقهم في سبيل الله، قرض حسن لله عز وجل يضاعف عليه أضعافا كثيرة ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢٤٥].

هذا: وإن بذل النفس وبذل المال، كل منهما صورة عن الشجاعة الحقيقية في النفس، ولما كا الأمر كذلك: فقد دعي أهل الإيمان إلى الشجاعة في بذل النفس إذ إن الآجال بيد الله، وإلى الشجاعة في بذل المال على الوجه المرضي عند الله؛ إذ إن قبض اليد لا يجلب رزقا ولا يزيده، كما أن بسطها قرضا حسناً لله لا يمنع رزقًا ولا ينقصه، بل يُضاعف الله ما ينفق في هذه السبيل أضعافاً كثيرة ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وهو سبحانه بيده الرزق يرزق من يشاء بغير حساب.

هذا: وكما يكون الجهاد بالأنفس، يكون بالأموال. وما أكثر الآيات التي أمرت المسلمين أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله.

وهكذا يبدو الترابط واضحاً بين الآية التي تحدثت عن تلك الطائفة من بني إسرائيل في صنيعهم المعوجّ التالف، وبين الأمر بالقتال والإنفاق في سبيل الله الذي سماه الله في مزيد من الترغيب: قرضاً حسناً لله.

وهذه المقولة التي نحوّم حولها، تقودنا إلى ما ذكره الله في كتابه الكريم عن خلائق اليهود بشأن المال وإنفاقه في سبيل الله، فقد روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه لما نزل قول الله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ قالت اليهود: يا محمد لو كان غنياً ما استقرضنا وفي رواية أنهم قالوا: يا محمد أفتقر ربك فسأل عباده القرض؟ فنزل قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾.

[آل عمران: ١٨١، ١٨٢].

لقد كانت قولة فاجرة، وفرية عظيمة، فلذلك جاء التهديد والوعيد بقوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ مقترنا بقوله جلت قدرته ﴿وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي هذا قولهم في الله من ناحية الفقر والغنى، وهذه معاملتهم أنبياء الله بدل أن يستجيبوا لدعوتهم، يقتلونهم، وسيجزيهم الله على ذلك شر الجزاء، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً، وبيانا لعدالة الله المطلقة، وأن ما ينالونه من الجزاء، إنما كان بضلالهم وعدوانهم على الله وعلى أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

هذا: وعلى الصعيد العملي في علاقتهم بالمسلمين، بعد أن حيل بينهم وبين السيطرة الاقتصادية التي كانوا يتربعون على عرشها في المدينة وما حولها قبل الإسلام، وقلّت في أيديهم موارد المال الذي كانوا يجمعونه مما هبَّ ودبَّ.. على هذا الصعيد، قالوا والعياذ بالله: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي مقبوضة عن إدرار الرزق عليهم كناية عن البخل والعياذ بالله، فنزل قول الله جلت قدرته وسمت حكمته في سورة المائدة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

[المائدة: ٦٤]

وإنها لآيات مثقلة بالكشف عن تلكم الخلائق الذميمة، والتناقض الفاضح بين دعوى الإيمان عند اليهود، وبين هذا النهج المخزي؛ فكراً وسلوكاً والعياذ بالله، كما أنها داعية أوضح دعوة وأبينها، إلى أن يأخذ المسلمون حذرهم، مهما امتد الزمن وتطاولت القرون، فلا يؤخذوا بزخرف القول، وبهرجة العناوين، ولا يتقاعسوا عن إعداد القوة من منابعها جميعاً، مهما تعددَّت المنابع والمآخذ، ولله عاقبة الأمور.